

في الثامن عشر من شهر تشرين الأول لعام ١٩٥٨ وصلتُ إلى مدينة بروكسل في بلجيكا لمتابعة دراستي العليا في العلوم الصيدلانية والكيميائية ، وبعد أسبوعين لحق بي أخي عدنان لابتداء دراسته الجامعية . ولم يكن في ذلك الوقت أي مؤسسة إسلامية في بلجيكا يمكن الرجوع إليها في ما يتعلق بشؤون المسلمين . لذا كان من أول ما قمنا به الاتصال بمسجد ومعهد باريس ، وهو المؤسسة الكبرى التي كانت تشتهر في ذلك الوقت . طلبنا من إدارة المسجد أن تزودنا ببعض المراجع الإسلامية باللغة الفرنسية للاستعانة بها خلال إقامتنا في ديار الغرب . تلقينا بفرح كبير نسخة من ترجمة معاني القرآن الكريم إلى الفرنسية وكتابا من جزأين عن الرسول ﷺ وترجمة لكتاب الرسالة في الفقه المالكي . كانت ترجمة معاني القرآن الكريم والكتاب عن الرسول ﷺ من عمل الأستاذ الدكتور محمد حميد الله . سمعنا باسم هذا الكاتب الجليل ونحن في بلاد الشام من خلال كتابه : “ الوثائق السياسية في عهد النبوة ” . بيد أن مطالعة ترجمة معاني القرآن الكريم وكتاب حياة الرسول ﷺ وضعتنا أمام شخصية علمية بحثاء نادرة المثال . فترجمة معاني القرآن كانت متميزة بأسلوبها وطريقة إخراجها والحواشي الملونة بالأخضر والأحمر التي كتبت بين السطور وفي أسفل الصفحات ، لتزيل ما غمض من ترجمة الكتاب المعجز . وقد صدرت الترجمة بمقدمة لم أرَ لها نظيراً ؛ فقد اشتملت على دراسة نادرة لترجمات معاني القرآن الكريم في اللغات المختلفة مع توصيف رائع للترجمة والمترجم من حيث اللغة والأمانة العلمية وكمال الترجمة ونقصها ، فقد كان عملاً رائعاً لم يسبقه إليه أحد ، وبدا لنا أنه أمضى في إعداده السنين الطوال اضطرته أن ينتقل بين المكتبات العالمية للاطلاع على هذه الترجمات المختلفة التي يزيد عددها على المئات .

أما كتاب رسول الإسلام فقد تحدث في الجزء الأول منه عن حياة الرسول ﷺ بأسلوب المحققين لكل شاردة وواردة في حياة المصطفى ﷺ ، ودقق في التواريخ والأحداث بدقة فائقة . ثم أتبع في الجزء الثاني دراسة تفصيلية عن أعمال الرسول ﷺ مع توثيق لكل فقرة وردت في هذه الدراسة الشاملة .

لقد جذبنا هذا إلى شد الرحال إلى باريس لزيارة المسجد والالتقاء بهذا العالم الجليل . وصلنا باريس في يوم الجمعة الأخير من شهر كانون الأول ديسمبر عام ١٩٥٨ فكانت فرصة لأداء صلاة الجمعة في المسجد الكبير الذي لم يكتمل فيه (٣) أو (٤) صفوف من المصلين على ما أذكر . وقبيل

الصلاة كان في زاوية من حرم المسجد يجلس رجل نحيل القوام رمادي الشعر ذو لحية خفيفة وعلى رأسه قبعة يلبسها مسلمو الهند وباكستان . كان الرجل يلقي درساً بلهجة متميزة واضحة ، إلا أن لغته كانت بليغة وهي أشبه ما تكون بلغة الصالونات الأدبية الراقية . انتهى الدرس مع الأذان للصلاة فذهبنا نسلم على المتحدث فكان هو محمد حميد الله . تجاذبنا أطراف الحديث وتعارفنا ودعانا إلى زيارته في بيته . كان محمد حميد الله يسكن في غرفة صغيرة في شارع تورنون 4, Rue de Tournon في الحي اللاتيني ليس فيه إلا سرير متواضع وطاولة للكتابة ، وأينما توجهت لن تجد أمامك إلا الكتب المتناثرة هنا وهناك حتى السرير ، فقد كانت الكتب تشاركه نومه وقيامه لم تتقطع صلاتنا بحميد الله فقد كان شخصية متواضعة محباً لجميع إخوانه لا يفتأ يتوجه إليهم بالنصح والتعاون ، فقد كان رائداً لتأسيس عدد من الهيئات الإسلامية كالمركز الثقافي الإسلامي في عام ١٩٥٨ ، ونادي الصداقة الفرنسية الإسلامية في عام ١٩٦٢ م ، واتحاد الطلبة المسلمين في فرنسا في عام ١٩٦٢ م أيضاً ، حيث كان يلقي دروسه الأسبوعية على جماهير المسلمين والمهتمين بالإسلام .

في زيارة لاحقة له أبلغني بفرح شديد أنه صار عند المسلمين الآن في باريس مسجد جديد ، ويقصد بذلك البيت الذي أهده أحد الجزائريين للمسلمين ليتخذوه مسجداً في حي بيل فيل Belle Ville ، وكان منزلاً قديماً يعج بالمصلين من كل حذب وصوب وأصبح فيما بعد نواة لإقامة مسجد الدعوة الكبير المشهور في باريس ، والذي يديره الأخ الحبيب الداعية الدكتور العربي الكشاط .

لم يتوقف نشاط الدكتور محمد حميد الله بين المسلمين وغير المسلمين ، فقد اعتنق الإسلام على يديه المئات من الأوروبين الذين يفتخرون بأن حميد الله كان شاهداً على إسلامهم . وكان ينتقل بين المدن الأوروبية لإلقاء المحاضرات عن الإسلام والدفاع عنه وبيان وجهه الحضاري والإنساني العالمي . لقد كان حميد الله يمثل وجه الإسلام في الغرب بما أوتي من علم غزير وخلق متواضع رفيع وحب للآخرين ، بل كان رائداً للحوار بين الأديان في فرنسا وتربطه علاقات صداقات وطيدة بعدد من كبار المستشرقين مثل لويس ماسينيون وجاك بيرك ولاوست ، وعمل لفترة طويلة في المركز القومي للبحوث في فرنسا وكان استاذاً في عدد من الجامعات العالمية كجامعة السوربون في باريس وجامعة بون وجامعة دوسلدورف في ألمانيا وجامعة استانبول . ويتقن حميد الله عدداً من اللغات كالعربية

والأردنية والفارسية والتركية والفرنسية والإنكليزية والألمانية وله فيها جميعاً كتابات ومحاضرات معروفة .

كان حميد الله غزير الإنتاج العلمي ، فقد ترجم معاني القرآن الكريم إلى اللغة الفرنسية ووزعت منه ملايين النسخ على البلاد الفرانكوفونية وتبنى مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف هذه الترجمة ونشرها في كل مكان . ومن مؤلفاته كتاب تعريف بالإسلام الذي ترجم إلى عدد كبير من اللغات كالفرنسية والإنكليزية وبعض اللغات المشرقية ، وقام المركز الإسلامي في آخن بطباعة الترجمة الألمانية لهذا الكتاب . ومن مؤلفاته أيضاً كتاب الوثائق السياسية في عهد النبوة ونبي الإسلام (جزآن) وترجمة ابن اسحاق وكتاب النباتات المستخرج من لسان العرب والبحر المحيط ونشر صحيفة همام بن منبه ، وكان من آخر مؤلفاته المترجمة كتاب سياسة الدولة على المذهب الحنفي مستخرجاً من مؤلفات الإمام السرخسي . وله ما يزيد عن (٢٠٠٠) مقالة علمية مختلفة ترجم كثير منها إلى لغات متعددة .

لم يتوقف حميد الله عن العمل على الرغم من تقدم سنه ونقص سمعه وضعف حركته ، وكان يرفض أن يقوم أحد إخوانه بخدمته أو أن يأوي إلى دور المسنين ، بل كان يقوم على شؤونه بنفسه ، وحينما أقعده المرض وكبرت سنه انتقل إلى أمريكا حيث يقيم بعض أفراد عائلته للاعتناء به وتولي أمره .

وهناك في أمريكا انتقل حميد الله إلى رحمته تعالى في يوم الثلاثاء الواقع في ١٣ شوال ١٤٢٣ هـ الموافق لـ ١٧ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٢ م عن عمر يناهز الخامسة والتسعين . وهو من مواليد مدينة حيدر آباد في الهند ، وسليل عائلة عرفت بالعلم وحفظ القرآن صغيراً في الحجاز ، وهاجر من حيدر آباد في مطالع حياته إلى فرنسا لأسباب سياسية لم يخلف حميد الله وراءه مالاً ولا ولداً فقد عاش عازباً طيلة حياته وترك وراءه ثروة علمية تشهد له بالأمانة العلمية والصبر الدؤب والتحقيق الدقيق .
رحم الله الأستاذ الدكتور محمد حميد الله وأسكنه فسيح جناته وجزاه الله على ما قدم للمسلمين من خير كثير .